تاريخية معمودية يسوع المسيح من يوحنا المعمدان ودلائلها

الأب د. جاك خليل
أستاذ الكتاب المقدّس
في معهد القدّيس يوحنّا الدمشقي اللاهوتي– جامعة البلمند

يؤكد غير قليل من الدارسين على تاريخية معمودية الرب يسوع من يوحنا، دون أن يتردد نفرٌ منهم في تسطير كون هذا الحدث أكثر الوقائع رسوخاً في مجمل ما نعرفه عن يسوع المسيح. ولكن الأمر المستغرب هو قلة من أخذ على عاتقه، من الباحثين، مناقشة الأدلة على صحة الرواية أو وضعها. هذا ولا تزال دراسة جون ماير (J. P. Meier) في هذا المجال إستثناءً بارزا(١).

وقد باتت اليوم الحاجة ملحّةً لأن يُعطى التسليم حقّه في الدراسات الموضوعيّة، غير التحزّرية، ولأن يجري تقييمه على أساس النقد التاريخي عبر تطبيق المعايير المعتمدة التي تلقى قبولاً بل إقبالاً واسعاً لدى الدارسين(٢)، والتي لها أن تساهم في التحقّق من تاريخيّة الفصول السرديّة في الأناجيل. وأما المعايير، التي تنطلق من أحكام مسبقة مقيِّدةً الوقائع التاريخيّة في إطار تفكيرٍ تشكيكيّ معاصرٍ، فالأولى إهمالها سيراً على خطى نخبة من الدارسين المعتبرين.

لذا يسعى هذا البحث بدايةً إلى تقديم الإثباتات على تاريخية شخص يوحنا

(١) J. P. Meier, *A Marginal Jew: Rethinking the Historical Jesus*, Vol. 2, Doubleday, New York, 1994.

(٢) يجد القارئ تقديماً مختصراً لأهم المعايير المعتمدة في محاضرة الأستاذ جاك شلوسر بعنوان "La recherche en cours" المنشورة في هذا الكتاب.

المعمدان، ثم على صحة سرد معمودية يسوع في الأناجيل الإزائيّة، قبل أن يتمحور الاهتمام فيه حول التحقّق من مبرّرات معمودية المسيح على يد سابقه.

تاريخية شخص يوحنا المعمدان

إلى جانب الأدلّة التي نقع عليها في الأناجيل والأعمال، يبرز مقطع ذو أهمية بالغة لدى المؤرخ يوسيفوس (**تاريخ اليهود** ١٨، ١١٦–٩) يؤكّد حقيقة وجود يوحنا المعمدان. ولكن، كما هو معلوم، فقد حفظت كتابات يوسيفوس كلها على يد نسّاخ مسيحيين، ما يبرّر السؤال عمّا إذا كانت قد تعرضت لمحاولات توفيقية بينها وبين روايات الأناجيل.

والواقع أن جملة من الاعتبارات تُثبت أصالة هذا المقطع الطويل؛ فكل المخطوطات المعتمدة من الدارسين تشهد لأصالة النص. كما أن تعليق يوسيفوس يتناسب جداً مع مقاربته العامة في الكتب ١٧–١٩ لِـ **تاريخ اليهود**. وتدل وحدة المفردات والأسلوب إلى عدم وجود أي تحريف(٣). أيضاً يذكر أوريجنس هذا المقطع كشهادة على تاريخية شخص يوحنا المعمدان(٤)، دون أن يغيب كامل نص يوسيفوس، مع تغييرات طفيفة، عن كتاب **تاريخ الكنيسة** لإفسافيوس القيصري(٥). أضف إلى كل ما سبق أن عرض يوسيفوس لكرازة يوحنا المعمدان ولمماته يختلف عن المعلومات التي نستمدها من الأناجيل الأربعة دون أن يتعارض بالضرورة معها(٦). وهذا ما يبعد احتمال أن يكون ناسخٌ مسيحيٌ قد أدخل نصّاً، أو أجرى تعديلاً، دون أن يعمد إلى تقليل هذه الفروقات بينه وبين الأناجيل.

(٣) يجد القارئ مراجعاً وافرة عن هذه البراهين عند J. Meier, *A Marginal Jew*... 2.100-105.

(٤) **ضد كلسوس** ١،٤٧.

(٥) إفسافيوس القيصري، **تاريخ الكنيسة**، ١،١١،٤–٦.

(٦) راجع على سبيل المثال تفسيرًا يسطر عدم التعارض بين السَردَيْن عند:
G. Stanton, *Gospel Truth? Today's Quest for Jesus of Nazareth*, Fount, Glasgow, 1995, p. 170.

ولكننا نجد في الأناجيل نفسها أسباباً كافيةً تجعلنا لا نشك بتاريخية يوحنا المعمدان؛ ففيها يستوفى أولاً معيار تعدّد الشهادات المستقلة (multiple attestation) والتي نجدها في إنجيل مرقس، المصدر Q، المصدر الخاص بالإنجيلي متّى (مت ٣٢:٢١)، والإنجيل بحسب يوحنا.

المعيار الثاني المهمّ جداً هو معيار الارتباك (embarrassment)؛ فيوحنا المعمدان كان نبياً معتبراً جداً عند اليهود في القرن الأول، وقد تابعت بعض الجماعات تكريمه بعد مماته رافضة الانضمام إلى المسيحية. هذا الأمر دفع بالإنجيليين إلى الانتقاص من أهمية التقاليد التي يمكن أن تجعل من المعمدان منافساً للرب يسوع.

وتخبرنا الأناجيل جميعها، صراحة أو ضمناً، بأن الربّ يسوع قد اعتمد من يوحنا. السرد المرقسي للحدث قصير جداً: "وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن" (مر ١: ٩). بما أنّه قد سبق هذا السرد اعتراف يوحنا بخضوعه ليسوع كما يخضع العبد لسيّده، فإنّ القارئ يتساءل بحق: لماذا احتاج الرب يسوع لأن يعتمد من يوحنا الذي "يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا" (مر١: ٤)؟ يُطرح هذا التساؤل علناً في إحدى القصاصات التي وصلت إلينا من إنجيل الناصريين الأبوكريفي (الذي يعود إلى القرن الثاني الميلادي)، حيث تقول أم الرب وإخوته له: "يوحنا المعمدان يعمّد لمغفرة الخطايا، هلم بنا نعتمد منه"، فيجيب الرب يسوع: "بما أخطأت لكي أحتاج أن أذهب وأعتمد منه؟ إلا إن كنت قد قلت شيئاً ما عن جهل" (المقطع الثاني). الأهميّة الوحيدة لهذا النص الأبوكريفي هو أنّه يشهد لفهم هذه المشكلة منذ الزمن القديم ويقدّم محاولة بدائيّة جداً لتحاشيها.

ربما يشكّل هذا التساؤل خلفيّة السرد المتّاوي أن يوحنا المعمدان أراد ردع يسوع عن المعمودية قائلاً: "أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟" (مت ١٤:٣). بحسب الإنجيلي لوقا، فإنّ يوحنا المعمدان هو نسيب الرب يسوع، وقد شهد له وهما لا يزالان جنينَين في أحشاء أليصابات ومريم (لو ٤١:١–٤٤)، وبحسب الترتيب اللوقاوي، تسبق رواية سجن يوحنا رواية معمودية

يسوع؛ فلا يطلعنا الإنجيلي صراحة عمّن عمّد الرب يسوع (لو ٣:١٩–٢١).

في الإنجيل بحسب يوحنا، يشهد يوحنا المعمدان أنه عاين الروح نازلاً من السماء كحمامة ومستقراً على يسوع (يو ١:٣٢–٣٤). إنّ قارئ الإنجيل الذي يألف روايات معمودية الرب يسوع في الأناجيل الإزائية يفترض من هذا المقطع أنّ يوحنا المعمدان قد عمّد يسوع. ولكن الإنجيلي لا يقول هذا علناً؛ فهو لا يريد أن يوحي بأن الرب يسوع حمل الله الرافع خطيئة العالم (يو ١:٢٩)، والذي يعمِّد بالروح القدس (يو ١:٣٣)، يحتاج لأن يعتمد من يوحنا[٧]. فالإنجيلي يذهب أبعد من ذلك إذ ينفرد بعدم إطلاق لقب "المعمدان" على يوحنا. إن وظيفة يوحنا في الإنجيل الرابع ليست أن يعمّد يسوع بل أن يشهد ليسوع[٨].

إن احتمال سوء تفسير معمودية الرب يسوع من يوحنا قد سبب ارتباكاً عند الإنجيليين في تعاملهم مع التقاليد التاريخية عن يوحنا المعمدان. هذا الارتباك، وكذلك سائر الوسائل التي لجأ إليها الإنجيليون لحل هذه الصعوبة، يشهدان لتاريخية شخص المعمدان. فالإنجيليون (ومصادرهم من قبلهم) لم يقوموا بخلق شخصية يوحنا المعمدان خدمةً لأفكارهم اللاهوتية، فسببوا لأنفسهم، نتيجة ذلك، "مشكلة تربكهم" عند سرد الأحداث التي يفترض أنهم ابتكروها.

نظراً لكل البراهين التي قدمناها، من تعدد الشهادات من خارج العهد الجديد وداخله، ومن الارتباك الذي يبرهن تاريخية السرد، لا يبقى هناك مبرّر علميّ للشك بتاريخيّة شخص يوحنا المعمدان. وهكذا نكون قد تخطّينا أوّل عقبة في تقصّي تاريخيّة سرد المعمودية.

تاريخية معمودية الرب يسوع من يوحنا

لا نستطيع أن نفترض مسبقاً تاريخية معمودية الرب يسوع من يوحنا، لأن

(٧) G. Stanton, *Gospel Truth...*, pp. 165-166.
(٨) J. Meier, *A Marginal Jew*, p. 2.21.

التشكيك في الحدث من قبل بعض الدارسين له أسبابه الجديّة[٩]؛ فيجدر بنا في هذا المجال أن ندرس القرائن لكيما نستخرج حكماً موثقاً تاريخيّاً، لا سيما وأن بعض البراهين العلميّة، في المقابل، تصلح لكي تقدم حججاً قوية لإثبات تاريخية معمودية الرب يسوع، من بعد تقييمها بشكل دقيق.

المعيار الأهم في الحكم هو معيار الارتباك؛ فواقع الحال، كما ذكرنا مسبقاً، أن الأناجيل تظهر بوضوح ارتباكاً في سرد معمودية الرب يسوع، وتحاول قدر المستطاع الحدّ من إمكانية سوء استغلالها من قبل الذين هم "من خارج". هذه الحجة ترتكز على المنطق القائل إنه لا يعقل أن تكون الكنيسة قد ابتدعت مادة قد تربكها عند الكرازة باسم يسوع[١٠].

يخبرنا الإنجيلي مرقس أن الرب يسوع قد تعمّد من يوحنا (١:٩)، وهذا الأمر يخلق مشكلتين اثنتين:

أولاً: لماذا يقبل الرب أن يحني رأسه ليوحنا، كما توحي المعمودية ضمناً؟

ثانيا: لماذا يقبل يسوع "معمودية توبة لغفران الخطايا" (مر ١:٤)؟

يبدو أن هاتين المشكلتين كانتَا قائمتَين حتى في التقليد السابق لمرقس[١١]. وقد يكون اللجوء إلى إقامة توازن بين سرد المعمودية (١:٩–١٠أ) وبين سرد الظهور الإلهي (١:١٠ب– ١١) قد حصل كسبيل وحيد للتخفيف من أثر الصدمة التي قد تنشأ عن هاتين المشكلتين.

---

(٩) يقدم J. Meier (*A Marginal Jew,* pp. 100-101) أسباباً عديدة تجعل لأول وهلة من الصعب التسليم بتاريخيّة بمعمودية الرب يسوع.

(١٠) J. Jeremias, *New Testament Theology*, translated from German by John Bowden, SCM Press, London, ⁶1981, p. 47.

(١١) عن أسباب الاعتقاد بانتماء المقطع مر١:٩–١١ إلى تقليد مكتوب استعمله الإنجيلي مرقس راجع:
J. Gnilka, *Das Evangelium nach Markus* (*Mk 1 - 8,26*), EKK II-1, 5. Aufl., Benziger Verlag und Neukirchener Verlag, Zürich - Düsseldorf - Neukirchen-Vluyn, 1998, pp. 48-49.

وقد برزت هاتان المشكلتان بحدّة في القرن الأول، مع انتشار التقليد عن الرب يسوع ويوحنا المعمدان؛ فربّما حاول الإنجيلي لوقا تجنّبهما بسرده قصة سجن يوحنا قبل سرد معمودية يسوع، لكي يشدّد بترتيبه للأحداث، على هذا الشكل، على المسافة الفاصلة بين يسوع ويوحنا، لا سيّما وأن التطرق إلى المعمودية في الإنجيل بحسب لوقا يحصل عرضياً، وبهدف تحديد زمن الظهور الإلهي، أي أن لدينا في لو ٣:٢١–٢٢ جملة رئيسية هي:

Ἐγένετο... ἀνεῳχθῆναι τὸν οὐρανὸν καὶ καταβῆναι τὸ Πνεῦμα τὸ Ἅγιον. ἐν τῷ βαπτισθῆναι ἅπαντα τὸν λαὸν καὶ Ἰησοῦ βαπτισθέντος

فتكون الجملة المركبة من

(Ἰησοῦ βαπτισθέντος) genetive absolute مع ἐν τῷ + infinitive"

بمثابة تحديد زمن حدوث الظهور الإلهي.

ويطالعنا في الإنجيل بحسب متّى حوارٌ بين الرب يسوع ويوحنا. يدرك يوحنا حقيقة يسوع، لذا يعبّر عن حاجته هو للمعمودية منه، فيجيبه الرب يسوع بمفردات متّاوية(١٢):

«Ἄφες ἄρτι οὕτως γὰρ πρέπον ἐστὶν ἡμῖν πληρῶσαι πᾶσαν δικαιοσύνην»

هكذا يخضع يوحنا للرب، ويتحول هدف المعموديّة من غفران الخطايا إلى إكمال كلّ برّ.

(١٢) التعابير المتّاوية في الآيتين: ٣:١٤–١٥ هي: v. 14: ὁ δὲ λέγων, τοῦ with infinitive

v. 15: ἀποκριθεὶς δὲ (εἶπεν), ἄρτι, οὕτως, ἀφίημι (?), πληρόω, δικαιοσύνη, τότε

وكذلك ممكن أن تكون الأفعال المركبة مع حرف الجر διά من إنشاء الإنجيلي متّى (أنظر:

U. Luz, *Das Evangelium nach Mattäus (Mt 1-7)*, EKK I-1, 4. Aufl., Benziger Verlag und Neukirchener Verlag, Zürich - Düsseldorf - Neukirchen-Vluyn, 1997, p. 150, note 1

وأما الإنجيل الرابع فإنه يسهّل الأمر كثيراً حين يستغني عن رواية المعمودية، ويكتفي برواية الظهور الإلهي دون ربطه بسرد معمودية يسوع.

من الواضح، إذن، أن معمودية يسوع قد تسببت للإنجيليين الأربعة بصعوبات متنامية، لذا يُعتبر سرد المعمودية، بحسب الباحثين، معلومة أكيدة جداً عن حياة الرب يسوع، فيما يشكل معيار الارتباك الحجة الدامغة لتاريخية المعمودية.

وبمقدورنا أيضاً أن نستمد حجة أخرى ممكنة من تعدّد الشهادات. فمع أنه جليّ بالنسبة إلينا أن الإنجيليَّين متّى ولوقا يستمدان مادتهما السرديّة عن المعموديّة من مرقس، هناك احتمال أن المصدر المفترض Q قد احتوى إشارة إلى المعمودية توسطت السرد عن المعمدان والسرد عن تجربة الرب يسوع(١٣). ودليلنا إلى ذلك هي الاتفاقات الصغرى (minor agreements) بين متّى ولوقا لى خلاف مرقس، وأيضاً لقب ابن الله الذي يرد بين مقطع المعمودية وبين قصة التجربة.

هذه الاتفاقات الصغرى في سرد المعموديّة والظهور الإلهي تشمل(١٤):

- استعمال اسم المفعول في زمن الماضي وفي صيغة المجهول في وصف معمودية يسوع (مت: βαπτισθέντος، لو: βαπτισθεὶς)، بينما يستعمل الإنجيلي مرقس الفعل المجهول ἐβαπτίσθη
- القول إن السموات قد انفتحت (مت: ἠνεῴχθησαν، لو ἀνεῳχθῆναι) بدل قول مرقس إنها قد انشقت (σχιζομένους)؛
- إضافة مقيّد نحوي (modifier) على كلمة "الروح" عند مرقس (مت: "روح الله"، لو: "الروح القدس")؛

(١٣) *Idem*, p. 150-151.

(١٤) راجع: *Idem*, p. 150, note 2; J. Meier, *A Marginal Jew*, p. 2.103.

– القول إن الروح القدس قد نزل ἐπ᾽ αὐτὸν بدل εἰς αὐτὸν التي ترد عند مرقس.

وتأتي قوة هذه البراهين من أن هذه التغييرات الأربعة في الأسلوب التي أدخلها الإنجيليّان متّى ولوقا ترد كلها في آية ونصف الآية من النص المرقسي(١٥). أما الاعتراض على عدم إثباتيّتها فهو أنه ليس مستحيلاً أن يكون كلّ من القديسَين متّى ولوقا قد أجريَا، باستقلالٍ عن بعضهما، تعديلاً مماثلاً على النص المرقسي، لا سيّما وأننا نعلم أنهما اعتادَا تحسين يونانية الإنجيليّ مرقس وأسلوبه(١٦).

ولكن اعتبارات أخرى تدعم مصداقية البراهين المذكورة أعلاه؛ فهناك أساس للاعتقاد باحتواء Q على مقطع يتوسّط بين كرازة يوحنا المعمدان وتجربة يسوع. عندما يخاطب الشيطان يسوع في تجربتَيه الأُولَيَيْن (مت ٤:٣، ٦ وما يوازيهما) يتوجه إليه قائلاً: "إن كنت ابن الله ...". تفسير ورود هذا اللقب فجأة في المصدر Q يقترح احتواءه على الإعلان الإلهي عند الظهور، "أنت [أو هذا] هو ابني الحبيب ..."، الذي يختم المقطع السابق لقصة التجربة.

أضف إلى ذلك أن الحديث عن الروح الذي اقتاد يسوع إلى البرية، كما ورد في Q، يقترح سرد نزول الروح على الرب يسوع بعد معموديته. يعزز أيضاً موضوع البرية الاعتقاد بوجود نص سابق عن المعمودية في الأردن. تجعلنا كل هذه الاعتبارات نميل إلى الاقتناع بوجود سرد في Q يتوسط ما بين وعد يوحنا المعمدان بمجيء من هو أقوى منه، وبين تجربة يسوع في البريّة(١٧).

نستطيع أيضا أن نجد في الإنجيل بحسب يوحنا برهاناً على صحة معيار تعدّد الشهادات. فثمّة ما يدعونا للشك في أن الإنجيلي يوحنا قد حذف عن

(١٥) J. Meier, *A Marginal Jew*, p. 2.183, note 8.

(١٦) انظر: John S. Kloppenborg, *The Formation of Q. Trajectories in Ancient Wisdom Collections*, Fortress, Philadelphia, 1987, p. 85, note 157.

(١٧) انظر: J. Meier, *A Marginal Jew*, p. 2.103; Migako Sato, *Q und Prophetie. Studien zur Gattungs- und Traditionsgeschichte der Quelle Q*, WUNT 2/29, Mohr (Siebeck), Tübingen, 1988, pp. 18, 25-26.

قصد معمودية يسوع من يوحنا التي عرفها جيّداً، وذلك في إطار حرصه على عدم إعطاء ذريعة يستغلها بعض تلامذة يوحنا المعمدان[١٨] أو شيعة تابعة ليوحنا أو غيرها (secessionists)[١٩]. ويرتكز هذا الاستنتاج على قول يوحنا إنه رأى الروح نازلاً ἐπ᾽ αὐτὸν، مستعملاً الجملة التي ترد في مت ٣:١٦ ولو ٣:٢٢، وربما وردت في Q أيضاً. وكذلك قوله إنه يشهد لما رآه "أن هذا هو ابن الله" (يو ١:٣٣–٣٤؛ راجع مت ٣:١٧، "هذا هو ابني ...").

من جهة أخرى، كثيرون جداً هم المفسّرون الذين يرون في مجيء يسوع "بالماء" في ١ يو ٥:٦ إشارة أكيدة إلى معموديته[٢٠]. فكما رأينا بالنسبة إلى الإنجيل الرابع، كذلك في ١ يو ٥:٦، هناك براهين واضحة عن معرفة الإنجيلي بالتفسير اللاهوتي لحدث المعمودية الذي لا يسرد صراحةً. نقرأ في يو ١:٣٢–٣٤: "وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله". نلاحظ أن مواضيع الماء، والروح، والشهادة، والعبارة "هذا هو" تتكرّر في ١ يو ٥:٦[٢١]. لذا هناك شبه إجماع لدى الدارسين حول فهم الماء والدم في ١ يو ٥:٦ كتلميح إلى المعمودية والإفخارستيا اللتَين لا مجال للشك في مكانتهما الهامّة في الإنجيل الرابع. وفي هذا ما يؤكد مجدّداً على معرفة الإنجيلي يوحنا بمعموديّة الرب يسوع.

(١٨) أنظر ملاحظات القدّيس يوحنا الذهبي الفم (PG 57, 414) حول حسد بعض تلاميذ المعمدان للرب يسوع، ورفضهم الاعتراف به، وقلقهم من انتهاء رسالة يوحنّا بسببه.

(١٩) R. E. Brown, *The Epistles of John*, The Anchor Bible 30, Garden City : Doubleday, New York, 1982, p. 578.

(٢٠) Hanz - Josef Klauck, *Der erste Johannesbrief*, EKK XXIII-1, Benziger Verlag und Neukirchener Verlag, Zürich - Braunschweig - Neukirchen-Vluyn, 1991, pp. 293-294, with note 826.

(٢١) *Idem*, p. 294.

ويجد بعض الدارسين في سفر الأعمال أيضاً براهين على تعدد الشهادات. من جهة أولى، هناك إشارات واضحة في سفر الأعمال إلى افتراض معمودية يسوع من يوحنا، ولكن يختلف دارسو الكتاب المقدّس حول مدى إمكانية تثبيتها من خلال إجراء يحترم المعايير العلمية. لا أستطيع أن أعطي رأياً شخصياً في الموضوع لأن الفرصة لم تتسنَّ لي بعد للبحث والتعمق فيه.

فتقوم إذن حجّة تعدّد الشهادات على كل الاستنتاجات المذكورة أعلاه، والتي تدل على أن في Q والإنجيل الرابع ما يعكس السرد المرقسي عن معمودية يسوع. وإذا ما أضفنا هذه الحجة إلى حجة الارتباك، يكون بوسعنا نتيجة ذلك أن نؤكد تاريخية معمودية الرب يسوع من يوحنا. ولكن تظل تواجهنا مشكلة استحالة الحصول على وصفٍ آخر لها سوى الذي لدينا في مر ١:٩–١١.

والتحدّي الأهم الذي يستتبع التثبّت من تاريخيّة معموديّة الرب يسوع هو إعطاء تفسيرٍ لقبول الربّ لمعموديّة التوبة لغفران الخطايا. هذا ما سوف نناقشه في الفقرة التالية.

ما سبب معمودية الرب يسوع من يوحنا؟

لقد أكدنا أن الرب يسوع اعتمد على يد يوحنا، لذا سنناقش الآن بعض المحاولات التي تهدف إلى تحليل هذه المعلومات من أجل تكوين فَهْمٍ أفضل ليسوع التاريخي.

نعرف عن الرب يسوع أنه، قبل أن يعتمد، كان حِرَفياً من قرية الناصرة في الجليل. ولا نملك أية معلومات عن سبب توجّهه جنوباً حيث كان يوحنا يعمّد في الأردن. ما لا شك فيه أن معمودية يسوع من يوحنا قد شكلت نقطة تحوّلٍ في مجرى حياته. حينها انطلق في مهمته التبشيرية تاركاً خلفه القرية والمهنة. إن كان هذا التحول قد بدأ في الجليل وبلغ أوجه عند المعمودية، أم بدأ عند معموديته، ثم صار الالتزام بمستتبعاتها، فهو تفصيلٌ سوف يبقى غامضاً لانعدام الأدلّة. الأمر الأكيد هو أن لمجيء الرب يسوع إلى يوحنا المعمدان مدلولاً خاصاً على قناعات له دينية.

يشير قبول الرب يسوع لمعمودية يوحنا إلى أنه قد وافق على فحوى رسالة هذا الأخير، أي أنه قبل بشكل خاص النقاط التالية(٢٢):

١. إن نهاية تاريخ إسرائيل حسب ما اختبره شعب إسرائيل إلى ذلك الحين قد أوشكت أن تحدث.

٢. لقد ضلّ شعب إسرائيل وجحد، وهو يواجه غضب الله وقضاءه الآتي.

٣. السبيل الوحيد للتحرر من حالة الخطيئة هذه والحصول على الخلاص هو في تغيير القلب والفكر، في التوبة والحياة بحسبها، وهذا ما يجب أن يتثبّت في قبول المعمودية الواحدة من يوحنا. وربما في هذا التحول الذي تطلبه معمودية يوحنا يكمن سبب ابتداء فترة الكرازة في حياة الرب يسوع نفسه.

٤. يعلّمنا هذا الحدث ضمنياً أن الرب يسوع رأى في يوحنا نبيّاً مرسلاً من الله إلى إسرائيل قبل دينونته. في هذا القبول لرسالة يوحنا ولمعموديته الدليل على أن يسوع قد شاطر يوحنا هذه القناعة الإسخاتولوجية الملوّنة بالأبوكاليبتية.

هذه الصور من مستهل حياة الرب يسوع العلنية تظهر عدم الصحة التاريخية في نظريات بعض المفسّرين الأميركيين عن يسوع غير الإسخاتولوجي، يسوع معلم الحكمة الذي اهتم بمشاكل الناس الحياتية في مكان وزمان محدَّدَين. لذا، ليس من المستغرب أن لا يولي هؤلاء المفسرون الجدد أهمية ليوحنا المعمدان في تصوراتهم ليسوع غير الإسخاتولوجي(٢٣).

ولكن هل بمقدورنا أن نذهب أبعد من ذلك في تحليلنا للمدلول المتضمّن في معمودية الرب يسوع؟

---

(٢٢) راجع: J. Meier, *A Marginal Jew*, pp. 2.109-110.

(٢٣) *Idem*, pp. 2.110

يظهر قبول الرب يسوع لمعمودية يوحنا أنه أراد الانضمام إلى جماعة الإسرائيليين الذين كانوا يدخلون نطاق الخلاص باعتمادهم على يد يوحنا. وهذا يستتبع نتيجتين طبيعيتين تستحقان الدراسة:

أولاً، لقد قبل الرب يسوع نوعاً من الشعائر الدينية غير الرسميّة؛ فبغض النظر عما طلبه يسوع من تقويم لبعض الممارسات، لا نستطيع الجزم بأنه رفض الشعائر كجزء من الحياة الدينية. ونعرف أنه لم يكن في القرن الأول من جماعات يهودية أو أفراد رفضوا جميع أنواع الشعائر الدينيّة(٢٤).

ثانياً، إن معمودية الرب يسوع تثير مسألة شائكة. يصف الإنجيلي مرقس معمودية يوحنا بأنها "معمودية توبة لغفران الخطايا" (مر ١:٤ب)، والذين قبلوها كانوا "يعترفون بخطاياهم" (مر ١:٥ب). بالطبع لا يذكر الإنجيلي مرقس أن الرب يسوع قد اعترف بخطايا ارتكبها، وكافة القصص الإنجيلية الأربعة لا تتحدث عن حاجة الرب يسوع إلى التوبة أو إلى التحول الجذري في حياته. وهدف الحوار بين يوحنا والرب يسوع قبل معموديته في الإنجيل بحسب متّى (مت ٣:١٤–١٥) هو أن يحول دون إمكانية ثبات هكذا فكرة(٢٥). علينا هنا، إذن، أن نطرح السؤال حول السبب التاريخي الذي أدى بالرب يسوع إلى قبول "معمودية توبة"(٢٦).

أما كون المصادر الإنجيلية تحاول التخفيف مما يستتبعه لاهوتياً هذا السؤال، فلن يساعدنا كثيراً في الإجابة عليه. ومع أن كثيرين منّا يميلون إلى قبول الموقف الذي نقرأه في الأناجيل، فإنّه يتحتم علينا منهجياً في بحثنا التاريخي أن ندرس المسائل والأدلة المتعلقة به.

يستدل بعضهم إلى معلومات عن الوضع النفسي الذي مرّ فيه الرب يسوع من خلال المعلومات التي نملكها عن خلفيته التاريخية، فينتهون إلى اقتراح خطايا

---

(٢٤) *Ibidem*

(٢٥) *Idem*, p. 111.

(٢٦) كثيرون يرون في الحوار الوارد في مت ٣:١٤–١٥ محاولة للحؤول دون فهم معين لقبول الرب يسوع معمودية توبة. فالمقطع هذا يفتقر إلى دليل آخر يدعم تاريخيته، أضف إلى ذلك هدفه الدفاعي الواضح.

محتملة ممكن أن يكون قد ارتكبها. هذه هي مقاربة هُولِّنْبَاخ (Hollenbach) . وطرحه هو أن "يسوع كنجّار انتمى إلى حِرَفِيِّي الطبقة الوسطى الذين احتاج إليهم الفقراء. ربما عاين يسوع الظلم الذي سمحت به طبقته الاجتماعية، ولمّا سمع وعظ يوحنا اكتشف أنه قد شارك إما بشكل مباشر، وإما بشكل غير مباشر، باضطهاد الضعفاء في المجتمع"(٢٧).

ثمة نقاط ضعف كثيرة في مقاربة هُولِّنْبَاخ (Hollenbach)، أهمها اثنتان:

إنها تحزريّة (speculative) على نطاق واسع، كما أنها تدفعنا إلى تحليل نفسيّ لأفكار يسوع. وواقع الحال هو أننا لا نملك أي دليل تاريخي عن خطيئة احتاج يسوع أن يتوب عنها.

ويقترح جون ماير مقاربة مختلفة بحثاً عن سبب قبول الرب يسوع لـ"معمودية توبة". مقاربته تقدم مساعدة قيّمة لفهم طبيعة معمودية يوحنا. إنه يلفت انتباهنا إلى معنى التوبة والاعتراف بالخطايا في إسرائيل القديم، يقول:

"كان الاعتراف بالخطايا في إسرائيل القديم فعل عبادة لله يتضمّن التسبيح والشكران. ولطالما عنى الاعتراف بالخطايا تذكّر ما صنعه الله وما أنعم به على إسرائيل الجاحد. إنه قبول متواضع بانتساب الإنسان إلى هذا الشعب الخاطئ، وتذكر عدم أمانة إسرائيل وارتداده منذ البدء إلى الآن، وقرار نهائي بالتغيّر وعدم الوقوع في خطأ الأجداد"(٢٨).

ويشير جون ماير إلى أن فعل التسبيح والشكران وفعل الاعتراف بالخطايا، اللذَين يبدوَان لنا اليوم مختلفين، هما من جذرٍ واحد في اللغة العبرية؛ فالفعل= **ידה** (ي د ه) في صيغة هِفعيل (hifil) يعني "أحمد" "وأشكر"، وفي صيغة هِتْفَعِل (hitpael) له معنى "الاعتراف بالخطايا"(٢٩).

(٢٧) P. W. Hollenbach, "The Conversion of Jesus : From Jesus the Baptizer to Jesus the Healer", *ANRW* 2.25.1, De Gruyter, Berlin, 1982, pp. 198-200.

(٢٨) J. Meier, *op. cit*., pp. 2.113-114.

(٢٩) انظر: J. Meier, *op. cit.*, p. 2.191, note, 46.

ويلاحظ ماير أن صلوات الاعتراف بالجحود في العهد القديم تتلى في بعض الأحيان من أشخاص ذوي مكانة دينية مرموقة لم يشاركوا في ارتداد الأمّة، ومع ذلك يشعرون بأنهم معنيّون بأعمال شعب إسرائيل وبمصيره(٣٠). ثم يذكر على سبيل المثال اعتراف عزرا وصلوات المرشحين للانتساب إلى الجماعة في قمران(٣١). هذه الصلوات والاعترافات لم تكن عن خطايا شخصية بل عن خطايا مجمل إسرائيل كأمّة.

هذه المقاربة تجد دعماً لها في فحوى كرازة يوحنا. فقد توجه يوحنا إلى كل أمة إسرائيل داعياً إياهم إلى إصلاح شعب إسرائيل قبل حلول الغضب المزمع أن يُقبل عليهم. فكانت بالتالي دعوة يوحنا للشعب لأن يبادر كأمّة وليس كأشخاص مستقلّين. وبالطبع، فقد استجاب إلى الدعوة أفراد، وكثيرون منهم انطلقوا من حِسّ المسؤولية تجاه شعب إسرائيل. ولكن من المحتمل أيضاً أن كثيرين من شعب إسرائيل، المعتبرين أمناء، قد أقبلوا إلى يوحنا رغبة منهم في إصلاح إسرائيل كما يدعو يوحنا(٣٢).

ويستنتج ماير من هذه الاعتبارات أن أيَّ حكم على مسألة الخطايا الشخصية عند الرب يسوع يتخطى ما تسمح به المعلومات المتوفرة. ويذكّر بأن البحث التاريخي يفضي أحياناً إلى الإقرار بعدم إمكانية التأكد من الموضوع. فمسألة كتلك التي تتعلق بخطايا يسوع الشخصية لا تسمح بإيجاد جواب يرتكز على مبادىء البحث التاريخية، ولا بد من اختلاف أحكام الدارسين حول هذه المسألة، لانعدام الأدلة، بحسب إيمان الدارس أو عدم إيمانه(٣٣).

---

(٣٠) J. Meier, *op. cit.,* p. 2.114.

(٣١) عزرا ٩:٦–١٥ ؛ نحميا ٩:٦–٣٧ ، 1QS ١:١٨–٢:٢

(٣٢) هذه النظرة تخالف رأي الدارسين الذين يعتبرون أن يوحنا كان يدعو مَن كان غير نقيٍ من الشعب، متوجهاً بالتالي إلى أفرادٍ حصراً. أنظر على سبيل المثال:
B. Chilton, *Jesus' Baptism and Jesus' Healing* : *His Personal Practice of Spirituality*, Trinity Press International, Harrisburg - PA, 1998, pp. 28-29; J. E. Taylor, *The Immerser, John the Baptist within Second Temple Judaism*, Eerdmans, Grand Rapids - Michigan, 1997, pp. 49-100.

(٣٣) Meier 115

خلاصة

تُبرز الآراء المتداولة حول معموديّة الرب يسوع، والتي ذكرنا بعضاً منها في معرض هذه الدراسة، أهميّة طرح هذه المسألة من وجهة نظر نقدية ترتكز على مناهج النقد الكتابي وتطبيق معايير المؤرخ على الفصول السرديّة الإنجيلية. وقد تثبّتَ لنا أن يسوع المسيح قد توجّه بالفعل إلى نهر الأردن لكي يعتمد من يوحنا، ما يمكن أن يدل على اعترافه بيوحنا نبياً إسخاتولوجياً وقبوله لرسالته عن اقتراب دينونة إسرائيل الخاطىء، وعلى تعبيره بمعموديته عن توقه إلى إقامة إسرائيل المنقّى من خطاياه.